العرب
الأحد 2021/08/08
السنة 44 العدد 12142

كثير من التجارب وكثير من الصمت

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

منطقتنا تسبح في المآسي. الفنانون التشكيليون سبقوا الجميع في تصوير هذه المآسي. لدى الفنانين التشكيليين قدرة سريعة على التقاط الصورة وتحويلها إلى أعمال فنية. هذه ميزة تحسب لهم. لكنها صورة أيضا مليئة بالبعد الدامي والحزين والصادم. أشياء لا تستطيع أن تحملها معك طوال الوقت. لوحات معارض وليست لوحات للاقتناء الشخصي. ولهذا فإن تأثيرها الصادم سريعا ما يتبدد، مرة بالنسيان ومرات بزحام الصور الحقيقية للمآسي التي تعيدها الفضائيات والمواقع والصحف بشكل مستمر.

لست خبيرا أو متابعا، لكن أعتقد أن ثمة خللا كبيرا في دور الأدباء في رصد المرحلة. هنا لا أقصد الشعراء فهم مكثرون – ربما أكثر من اللازم – في الوصف والعويل.

وقت طويل مرّ على انطلاق الحروب في عالمنا العربي، حروب أهلية شاملة أو جزئية لكنّ الأدباء ساكتون

الشعر عمل بصري مكتوب. الوصف فيه يعتمد المبالغات، ومثله مثل الآثار البصرية المأساوية للوحات والأعمال النحتية، لا يستطيع الصمود طويلا. هذا نص مليء بالبكاء. هذا نص آخر من شاعر آخر مليء ببكائيات أكثر. والحبل على الجرار. الناقص هو الأعمال الروائية. مر وقت طويل على انطلاق الحروب الأهلية في عالمنا العربي. حروب أهلية شاملة أو جزئية. لكن الأدباء ساكتون. المشهد يغص بتجارب إنسانية كثيرة، لكن لسبب ما لا نجد الكثير من الأعمال الروائية التي تنقل لنا روح المرحلة. تجربة الحرب. تجربة التهجير. تجربة الجوع. تجربة اضطهاد اللاجئ من قبل أفراد في بلد اللجوء. تجربة احتيال اللاجئ. تجربة الهجرة إلى أوروبا. تجربة الحرب بعين الضحية. تجربة الحرب بعين القاتل. تجربة الجندي المجبور على القتل. تجربة الطائفي المتفاني في القتل. تجربة نساء دواعش. تجربة العيش في مدينة تسهر لوجه الصبح في حانات وهي محاطة بسلفيين ينتظرون الفرصة للانقضاض عليها. تجربة أئمة كذب ونفاق. تجربة وهم بالقادة.

الكثير من التجارب. والكثير من الصمت. لنأخذ مثلا من تاريخ الشعوب. لنتخيل جدلا أن أوروبا لم تتفاعل أدبيا مع تجربتي الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، أو أن أدباء في الولايات المتحدة لم ينتبهوا للوقع النفسي على الناس، منتصرين أو مهزومين، بعد تجربة الحرب الأهلية. كيف سيكون الأدب الغربي إذا قرر أدباء أوروبيون أو أميركيون أن يسهوا عن هذه التجارب.

الأدباء لم يكتبوا في حينها فقط، بل ثمة أجيال أعقبتهم تقلب صفحات كتب التاريخ وتكتب أدبا عن تلك المراحل من حياة الأمم، بكل مشاهدها القاسية والقبيحة والإنسانية.

لا يمكن، على سبيل المثال، أن تفهم عمق التأثير الذي ضرب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى من دون الاطلاع على رواية "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" لأريك ماريا ريمارك. لا يمكن أن تفهم لماذا صعدت النازية بعد الحرب لتقود أوروبا إلى حرب أخرى من دون متابعة قراءة روايات لريمارك التالية ومن عاصره من روائيين كانوا في قلب الحرب، سواء على الجبهة أو في مآسي العوز والآلام في المدن أو في وجوه الجنود العائدين.

الوصف الروائي الإنساني مذهل في "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية". هذه ليست رواية توثيقية وسردا عابثا. عندما يفهم الجندي الذي ذهب مندفعا إلى الجبهة أن الموت ليس مغامرة تعود منها، فإن حياته تتغير. هذا ليس وصفا لمشاعر الخوف من الموت. كلنا نخاف من الموت. لكن أن تذهب إلى الجبهة بوصفها مغامرة مثلما تقوم بنزهة كشفية، ثم تتعرف على الموت هناك ليس بصفته المجازية، هنا يحدث الفارق وترصد المعنى الحقيقي لفكرة محاولة النجاة، بل ماذا يعني البقاء. هؤلاء جنود عادوا بهذا الانطباع، ورصدتهم الرواية. هذا ما أرى أنه وأمثاله من هذه التجارب مفقود في أدبنا الروائي في عصر الحروب الأهلية العربية.

لم أسمع عن روائي عربي أو كردي واحد يقوم الآن بعملية توثيق لشهادات ضحايا أو مجرمي الحرب. هذه فرصة تاريخية قبل أن تكون أدبية. أنت في قلب المعمعة في حلب أو الموصل أو طرابلس. هذه قصص وحكايات يمكن أن تنسج في أعمال روائية. ألم الضحية. متعة القتل. غرائزية الدوافع. مشهد شيعي للقتل. مشهد سني للقتل. مشهد جوع. مشهد لأسر تجوع وتستمر بالإنجاب. مشهد لمهرب للبشر. مشهد لمهرب آخر يرى في الحرب في بلده فرصة لتهريب أفارقة أو أفغان. مشاهد اغتصاب، شرعية بحجة تزويج القاصرات للسترة، أو اعتباطية في لحظة سكر لحارس على معتقل أو على مركز مهاجرين. حرائق للمخيمات. حرامية وسراق من بيننا. هدايا كتب لأطفال بمعدة فارغة. قصص عن خطط محكمة للهجرة.

لست أديبا ولكني قارئ ينتظر. لا أريد أن أكثر من الرصد لما أعتقد أنه فات على الروائي العربي أو الكردي. لكن بعيونهم لو صدقناها، لا نرى إلا صمتا، وأن كل شيء هادئ على كل الجبهات.

لماذا يسكت الروائيون (لوحة للفنان أنس سلامة)

الفن العربي هش أمام المنظومة الدينية الفقهية

كاهنة عباس
كاتبة تونسية

الثقافة ليست ترفا أو أداة للتسلية أو وسيلة تستعملها السلطة الحاكمة لترسيخ سيطرتها على المجتمع، فلو رجعنا إلى الثقافات القديمة: الفرعونية، اليونانية، الرومانية، لاستنتجنا أن ما بقي منها بعد اضمحلالها هي خصائصها، تلك التي جعلت شعوبها تتميز عن غيرها من الشعوب على امتداد التاريخ.

وإن عرفنا الثقافة بتلك الخصائص فمعنى ذلك أنها تتمثل في الخلق والإبداع والرؤى والأفكار والتصورات المقترحة لتسيير الحياة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، النفسية، الروحية خاصة منها المتعلقة بعلاقة الإنسان سواء بغيره أو بالعالم أو بالغيب.

لذلك منحت اليونسكو الثقافة مفهوما شاملا باعتبارها المميزات المعنوية، الروحية، الفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا ما أو مجموعة اجتماعية مع ما اشتملت عليه من فنون وآداب، وأنماط الحياة والحقوق الأساسية للإنسان ومنظومة القيم الاجتماعية والتقاليد والمعتقدات (1).

اعتمادا على هذا التعريف، فالثقافة ليست فرعا لنشاط أو لمجال ما، بل هي المرجع بما في ذلك التأسيس للسلطة السياسية والمعنوية والعقائدية والروحية.

من هذا المنطلق، علينا أن نعيد النظر في المقاربات التي اعتمدت لتناول قصور الثقافة العربية الإسلامية عن الانخراط في المسار التاريخي للإنسانية.

لمَ اعتبرت الثقافة من منظورنا نشاطا للترفيه يقع تنظيمه في شكل تظاهرات موسمية ومهرجانات وندوات وملتقيات، ليس زادا معرفيا رمزيا وثقافيا يندمج في المجتمع ويمثل مرجعا لإيجاد الحلول الممكنة لمشكلاته اليومية؟

فالإحصائيات تثبت أن مجتمعاتنا في العالم العربي لا تقرأ وقلما تهتم بالفنون مثل المسرح والفنون التشكيلية التي ما زالت تعتبر نخبوية، أما الإنتاج السينمائي فتارة يميل إلى الاستجابة للذوق العام حتى يحقق أرباحا تجارية وطورا يكون موسميا لارتباطه ببعض التظاهرات الثقافية ولصعوبة إيجاد التمويلات اللازمة، بيد أن الموسيقى استطاعت أن تكون أكثر الفنون انتشارا والتحاما بالمجتمع.

ومعنى ذلك أن الثقافة بقيت نشاطا هامشيا، لم تزعزع في العمق لا التقاليد ولا العادات ولا المنظومة الدينية الفقهية، فمفهومنا العام للثقافة يعتبرها منفصلة عن الدين خلافا للعلوم الإنسانية التي ترى أنه فرع من فروعها، فكيف لم تساهم السينما والموسيقى والأدب والرسم في إعادة النظر وتطوير المنظومة الدينية الفقهية؟ فحين نقرأ رواية حديثة ثم نسمع خطابا دينيا يتبادر إلى أذهاننا أنهما لا ينتميان إلى نفس العصر، هل من المعقول أن النحت والتصوير مازالا يعتبران من المحرمات من منظور فقهي في عصرنا، الذي يعتبر عصر الصورة بامتياز؟

ألا يفسر ذلك الانفصال، هشاشة الفن ودوره في مجتمعاتنا؟ فما هي أسباب تلك الهشاشة، ألأنه ما يزال مرتبطا بالسلطة السياسية، أم لتنكر المجتمع لقيمة الفرد ووجوده وتهميش كل ما هو متصل به، حتى يحافظ على قيم الأمة والجماعة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة، تدفعنا إلى تناول مسألة الحداثة باعتبارها اعترافا بالفرد كذات مستقلة وحرة تتمتع بحقوق وواجبات داخل المجتمع والدولة لتصبح هي المرجع الأساسي في تنظيمهما، مع انهيار مفهوم الجماعة وتراجع التقاليد والعادات وترسيخ قيم الحرية والخلق والإبداع والفردانية.

لكن مفهوم الحداثة كما عرفته أوروبا لم يطرح من هذه الزاوية في مجتمعاتنا بل من زاوية أخرى تتعلق بمدى تطابق قيمها مع التعاليم الدينية دون الأخذ بعين الاعتبار القيم الثقافية الأخرى سواء الفنية أو الاجتماعية أو الأنثربولوجية التاريخية أو السياسية ومعنى ذلك، أن الجواب الوحيد والممكن عن مسألة الحياة والموت والوجود الإنساني بقي دينيا لا يمكن للإنسان أن يخوضه إلا من باب تأويل النص الديني وتفسيره، لا من باب الإبداع والابتكار والتجربة الشخصية ولا

الثقافة العربية بقيت نشاطا هامشيا، لم تزعزع في العمق لا التقاليد ولا العادات ولا المنظومة الدينية الفقهية

الجماعية والتراكم المعرفي التاريخي أي من باب العقل المبدع المنتج.

وفي الحقيقة، إن علاقة الفن بالدين هي علاقة معقدة تتسم بالتواصل والتصادم في نفس الوقت، أما التواصل، فمرده تطرق كليهما إلى مكانة الإنسان في العالم، إذ غالبا ما يعبر الفن عن الجانب الروحي للإنسان فيكون في خدمة الدين، ونلاحظ ذلك في المعمار العربي الإسلامي أو في حضور الفنون بشتى أنواعها داخل الكنائس، أما أسباب التصادم بين الدين والفن فيعود بالأساس إلى مساحة الحرية الممنوحة لكل منهما، فالإنسان في منظور الفن الكائن القادر على الخلق والابتكار، بينما يراه الدين مخلوقا مدينا بواجب الطاعة لخالقه.

ومهما تكن علاقة الدين بالفن وبالفكر عموما فتفاعل كل منهما مع الآخر في أيّ ثقافة أو مرحلة تاريخية، سلبا أو إيجابا ما انفك متواصلا، يمكن أن نذكر في هذا المضمار على سبيل المثال: أثر ترجمة الفلسفة اليونانية في العصر العباسي على نشأة علم الكلام وما طرحته من مسائل أدت إلى قراءات "عقلانية" للنص القرآني، أو علاقة الأدب والشعر العربي بالفقه الإسلامي سواء في تشكل المعنى وجماليات الأسلوب وصياغته.

ما يمكن أن نستنتجه، أن انفصال الدين عن الفن كما نلحظه في حياتنا اليومية وفي طريقة تفكيرنا أو في مناهج تدريس التراث يمكن اعتباره مؤشرا لوجود أزمة حقيقية، لأن الفن في نهاية المطاف ليس إلا تعبيرا عن الإنسان وعن وجوده، بكل ما يحمله من تميز وفردانية، وإذا اعتبرنا أن الإنسان قيمة في حد ذاته، سنعتني بجميع جوانب حياته سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو شخصية، لذلك قامت النهضة الأوروبية في بدايتها على الفنون، بأن جعلت الإنسان هو المركز والقيمة الأساسية في الوجود.

مركزية الدين وهامشية الفن وانفصالهما، تشير إلى أن مشاعرنا وأفكارنا ومشاغلنا منفصلة الانفصال التام عن الأجوبة الوجودية حول الحياة والموت التي يمكن للفقه وللقراءة الدينية عموما أن تقترحاها علينا.

وإذا أضفنا إلى تلك الإشكالية الفكرة السائدة التي مفادها أن جميع الحلول الاقتصادية والاجتماعية لمجتمعاتنا، لا يمكن حلها إلا بفضل السلطة السياسية، لأنها مصدر التغيير الفعلي في غياب الرؤية العقلانية، علمنا بأن الفكر والإبداع يمثلان دائرة مهمشة ليست مؤهلة لإعادة النظر في علاقة الإنسان لا بحاكمه ولا بخالقه، حتى يبقى متبوعا قاصرا على التفكير بنفسه.

ص11 وص13 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

مركزية الدين وهامشية الفن